4. 2. 3 - فشل تمام حسان سببه عدم التمييز بين الفرضيات والمنوالات

إن ما وصلنا إليه من مفارقات حول عمل تمام حسان يدعو إلى التساؤل وإن سؤالا محيّرا يلحّ علينا: لماذا وقع عالم في مثل نباهة الرجل وصدق حماسه للسانيات في مثل هذه المآخذ؟ وكيف أثرت فيه أقوال أصحاب التيسير هذا التأثير وقد تسلح بمعرفة لم يتسلحوا بها وسنح له من فرص العلم ما لم يسنح لهم؟

تفسيرنا لهذا الوضع أن ما تسلح به تمام حسان من فرضيات لنقد التراث لم يكن واضحا متكاملا ودقيقا على نحو يمنع تسلّل فرضيّات دعاة التيسير بتجريبيّتها التي حلّلناها سابقا إلى إطاره النظري. في مشروعه فراغ لعله سؤال ضمني تلبّس ببديهة فلم يطرح ولعله قول عام يقتضي مزيد تدقيق لم يتمّ. ولعلّه تمييز لطيف بين شبيهين أوهم فرط تشابههما بالتماثل فلم يميّز أحدهما من الآخر ولم يفرّق بينهما. وكان ذلك هو الذي فتح السبيل إلى تجاور الأضداد وحصول المفارقات عند هذا الرائد. وفي محاولة أولى للإحاطة بهذا الفراغ أو النقص نتساءل إلى أي حد يلائم ما أخذه من اللسانيات تقييم ما ينقده من التراث النحوي؟ لعل في عدم تدقيق عناصر هذه القضية التفسير الموضوعي للهنات والمآخذ التي أشرنا إليها.

إن تدقيق هذا السؤال يساوي في مضمونه تحديد جدة اللسانيات ماهي وذلك بترتيب مختلف مظاهر هذه الجدة حسب مبدإ ما. ويساوي أيضا تبويب مظاهر التراث النحوي تبويبا يناظر الترتيب الأول ويطابقه على نحو ما. ولقد حاول تمام حسان أن يتمثّل جدّة اللسانيات بالنظر إلى التراث العربي تماما كما صنع اللسانيون الغربيون مع تراثهم. فطرح سؤاله الهام الذي نوّهنا بطرحه وهو هل خلص العرب الدراسات اللغوية من شوائب التفكير غير اللغوي بصفة عامة والتفكيرالفلسفي بصفة خاصة [1]. وأجاب بالنفي. وافترض أن ما عاب به اللسانيون الغربيون تراثهم اللغوي ينسحب انسحابا كليا على التراث العربي. وقد ركّز في ذلك على ثنائية اشتهر بها وتابعه في استعمالها كثير من ناقدي التراث وهي ثنائية المعيارية والوصفية. وبدت له المعيارية ملخّصة لعيوب التراث النحوي

1 المرجع نفسه ص 24